

# نزعات خرافية جديدة ...

بمجد عبداللطيف كراه

يزال هذا المفهوم للسياسة هو السائد في عقول عدد لا يحصى من الافراد ، والفئات ، والجماعات ، لا سيما في البيئات التي تحسب انها بلغت درجة عالية من التقدم التقني ، ووقفت الى انجازات علمية لم يوفق اليها غيرها ، بحيث تتخول لنفسها امتيازات ومصالح ترهق بها الآخرين .

ولم يكن لرجال السياسة بد ، في اطار ذلك المفهوم العتيق الحديث ، من استغلال الحالات الفردية والاجتماعية التي يفقد بها العقل سلطانه ، ليتمكنوا من الإبقاء على سلطانهم ، وهكذا ... وفقوا ، على غير وعي منهم ، أو بطبيعة الوضع البشري ، الى الإبقاء على الخرافة ، ومدها بالأيدي والقوة ، لترسخ في الارض ، ويطرسخ معها نفوذهم .

ولا أدل على صحة ذلك ، من الآلام والمشقات والخطوب التي نزلت بأعداء الخرافة ، وأصدقاء العلم ، والتفكير العلمي ، في كل عصر وبلد . وهذا مبسوط في تاريخ العلم ، على نحو ، لا يدع مزيدا فيه لمستزيد !

## استراتيجية جديدة : تحويل العلم الى خرافة .

غير ان العلماء ، وأصحاب التفكير العلمي القويم ، استطاعوا لكثرة ما بذلوا من جهود ، وتضحيات ، وشدة ما كابدوا من عذاب ومتاعب ، أن يفرضوا أنفسهم على المجتمعات البشرية ، فلجأ المفتونون بالسيطرة الى استراتيجية جديدة ، وهي قبول المبادئ العلمية في الشؤون المادية ، والخضوع لمقتضياتها الآنية ، والاشادة بالمبدعين والمخترعين والمكتشفين في كل حقل وميدان ، حتى اذا خلصوا من معارضة العلماء ، ونفذوا الى مواقع السلطة ، حولوا العلم نفسه الى خرافة ، وراحوا يتدربون بالتفكير العلمي لمقاومة الروح العلمي ، وتضليل العقول ، واخفاء الحقائق ، ونفذوا من ثمة الى بلوغ أغراضهم اللاعلمية ، باسم العلم .

ولنا في موقف هتلر ، في الثلاثين من شهر كانون الثاني ( يناير ) عام ١٩٣٧ ، برهان ساطع لا يدحض ، ودليل دامغ يلزم حجرا كل من ينكر صحة ما نبين هنا ، اذ وقف يومذاك خطيبا ، وقال : « ... اني أعلنها هنا ، أمام المستقبل ، ان عقيدة الدم والعرق التي تعتنقها الحركة الوطنية - الاشتراكية ( النازية ) ستبعث على تحول في تقييم معارفنا ، ومن ثمة ، في فهمنا تاريخ الماضي ، ماضي

هناك حالات فردية ، واجتماعية أيضا ، يفقد بها العقل سلطانه على النفوس ، وتصبح الكلمة العليا فيها للفرانز ، للعواطف ، للانفعالات البدائية ، وأخيرا للمخاوف التي تخامر الافراد والجماعات على السواء ، وتسري عدواها من جيل الى جيل ، ومن مجتمع الى مجتمع .

وهذه الحالات التي تعم وتشمل ، مع الزمن ، هي التي تقوم ، على التحقيق ، وراء كثير من التقاليد ، والعادات ، والافكار ، والنزعات الخرافية .

ذلك بأن الروح النقدي ليس من شأن الجمهور ، وانما هو في الدرجة الاولى ، ميزة أفراد . والذين ينصرف همهم الى النقد على أنواعه ، يعبرون بمجرد هذه العفوية في انصرافهم ذاك ، عن أوضاع نفسية متباينة ، متناقضة ، متشابكة ، لا يمكن حصرها في وصف واحد ، اذ يمكن أن ينشأ هذا الروح - النقدي - عن روية واعمال نظر ، ويمكن أن يكون ، في الوقت ذاته ، نتيجة شعور شخصي ، أو تجربة شخصية مالت بصاحبها نحو المواقف السلبية من الوجود البشري . وقد يكون أحيانا صادرا عن ضيق بالانتاج ، والابداع ، والعمل ، وما تقتضيه هذه من جهود أو تستدعي من كفاءات متفقدة ، فيعكف صاحبه على « مناوشة » المنتجين والمبدعين والعاملين ... ويمضي في « الإشتغال » بغيره ، بدلا من أن ينصب على تحسين حظه ، ومقابلة ما يراه قدرا له !

واذا كان الروح النقدي ضئيل الظهور في الجماعة أو الجمهور ، فان الروح العلمي أقل شيوعا حتى في الافراد ، ولا نعرف انه توفر لمجتمع من المجتمعات الا بعد عصور وأحقاب ، وخطوب وأوصاب ، وقد يظهر في أمة معينة ، في زمن معين ، ولا تقع له على اثر في أمة غيرها ، في زمن آخر .

وكان من نتائج ذلك الاضطراب الاصيل في تكوين الروح النقدي ، وهذا الفقر النسبي في الروح العلمي ، أن ظلت « الخرافة » ، أو « التفكير الخرافي » بتعبير أصح ، هو الاكثر انتشارا ، حتى في أوسع رقاع الارض تمدنا وعمرانا .

## السياسة : وراء انتشار الفكر الخرافي

كانت السياسة تعني ، في العصور القديمة ، السعي وراء الرئاسة ، والعمل من أجل السيطرة ، واستقطاب أكبر عدد ممكن من الجماهير . ولا شيء غير ذلك ! ولا

الانسانية كلها ، وفي ادراكنا المسبقة للمستقبل ، على نحو ما أحدثت معرفتنا بدوران الارض حول الشمس ثورة في فهمنا للكون » .

والحقيقة ان هتلر كان في عقيدته العنصرية ، أكثر « خرافية » من نيرون الذي اغتال أمه ، وأحرق روما ، وطاف على مسارح أثينا يعني نشداننا منه لتصفيق الجماهير واعجابها بعقيدته الفنية في الغناء !

بيد ان هذه الاستراتيجية الجديدة التي تستغل العلم لاغراض سياسية ، ليست من مبتكرات العقل الغربي « العلمي » ، وانما هي من مخلفات العصور الوثنية ، من « بدائع » العشارين والفريسيين الذين تظاهروا باتباع السيد المسيح ليقاوموا المبادئ والتعاليم المسيحية ، أو هي من آثار المنافقين الذين تذرعو بالاسلام وتعلقوا عليه حجة يحاربونه بها ، ويبقون في داخله ، على الربا ، ويمنعون العدالة التي جاء بها الشرع الاسلامي من بلوغ أهدافها في حياة الناس !

### خرافات الصهاينة في أوروبا وأميركا .

لم يكن هتلر في عنصريته الخرافية التي ضحى على مذبحها بالملايين ، سوى صهيوني الماني ، أو جرمانى ، نزل الجرمان من خرافته منزلة « الشعب المختار » في العقيدة الصهيونية ، وغرضه الحقيقي - علميا - انما كان ، أن يستغل العرق الجرمانى سائر الاعراق البشرية ، وفي مقدمة هذه اللاتين والسلاف ، ثم ينتقل الى غيرهم . . . ومن الواضح ان الخرافة الاساسية ، وهي القول بتفوق عنصر على عنصر ، وردت في الاصل ، من التراث اليهودي . ثم نشأت على جذع تلك الخرافة كثير من الخرافات الفرعية التي ترمي أكثر ما ترمي ، الى بذر الشقاق ، واحداث التفرقة بين الشعوب والامم ، وحملها على الاحتراب والافتتال ، مثل أسطورة « الشرق والغرب » ، وحكاية « البداوة والتمدن » ، والتشديد على الفروق بين مناخ ومناخ ، وثقافة وثقافة ، واقليم واقليم ، و . . .

وفي حمى هذا الجو الخرافى الذي هيمن على أوروبا طوال فترة ما بين الحربين ، وما زال يهيمن على أميركا الشمالية ( كندا والولايات المتحدة ) ، سرت سموم أنت على البقية الباقية من الروح العلمى الرصين ، والفكر النقدي البناء ، وقضت على سلامة التفكير ووضوحه لدى الجماهير الأوروبية والأميركية .

وقد يكون أفتك هذه السموم ، وأبرزها للأذهان ، ذلك « الفلو » في قيمة الاعلان ، واثر الدعاية ، حتى أوشك الناس أن يفقدوا ، في جو هذه الحمى الدعائية ، كل شعور بالحقيقة ، وانصرف معها هم الاكثرية الساحقة الى الاعلان أكثر من أي شيء آخر . وبهذا . . . تحولت « الاكاذيب » لكثرة ما أحيطت بالدعايات والاعلانات الى « عقائد » هي في جوهرها أوهاام ، لا سبيل الى القضاء

عليها ، ولا الى تبديدها بعد الا بتمن باهظ ، لا بد أن يدفعه الضالون والمضللون ، على السواء ، فالحقيقة من القوة دوما ، بمنزلة يفرضها الزمن معها ، على أعدائها ، وينتقم لها من شائئها .

وأغرب ما يتبينه الباحث في هذه النزعة الخرافية الجديدة التي جرفت الاوروبيين والاميركيين ، انسياق العلماء والمفكرين والادباء والصحافيين وأساتذة التاريخ والقانون في تيارها ، حتى لتجد عالما رياضيا مثل اينشتين يبحث في نفسه عن عنصريته ، ولا يبقى فرق بينه وبين غوبلز وزير الدعاية الهتلرية ، اذ نجده يقول ، وهو لا يشعر بفداحة الخطأ فيما يقول : « ان تلك الاشياء الثابتة الدائمة في تقاليد الشعب اليهودي ، تنهض لى بالبرهان على هذا الواقع ، وهو اني أنتمي اليه ، وقد بعثت هدية من القدر اليه ! » .

أرأيت الى الغرض السياسى المشبوه : كيف يحول العقل الرياضى ، حتى العقل الرياضى ، الى فكر خرافى ، خالص في خرافيته !

لقد برر هتلر سياسته - كما رأيت - بالعلم ، وان كان علمه خرافيا ، ولكن اينشتين ، « رجع » الى التقاليد الخرافية ، ليبرز موافقه السياسية . وواقع أمره ، في الحقيقة ، أنه أراد - على غير وعي منه ، فيما أحسب - أن يستغل حتى شهرته كعالم ، في سبيل الدعاية لليهود ، عند الاميركان ! وتلك هي خرافية في جوهرها .

### « تخريف » الثقافة بين البحث والنقد .

لم يكن أمام العاملين في حقول السياسة من أكثر الاوروبيين والاميركيين - لا كلمهم ، طبعا - الا أن يخضعوا الراى في الثقافة ، لهذا الجو الخرافى ، أي لحالة هي انأى ما تكون عن العقل النير الهادى ، والبحث المثانى الصبور ، وأن يسلموا قضيتها للعواطف ، والغرائز ، والعصبية العنصرية والقومية والدينية والعقائدية السياسية ، فكان أول ما كان ، في اجراء عملية « التخريف » للثقافة ، حديث الثقافة السامية ، والثقافة الآرية ، وراح ناقدو الادب في ديارنا ممن تحولت الثقافة في تفكيرهم الى خرافة ، يتحدثون عن الجانب الآرى من شاعرية ابن الرومى ، والجانب الحامى من فروسيية عنترة ، و « التخلف » السامى في عقلية الشريف الرضى ، وهلم جرا . . .

وقضية الثقافة ، منذ أثيرت حتى الآن ، وحتى من خلال ما نشر حولها في مجلة « الآداب » ( ١ ) ، لم تصيح « قضية » ، الا لادخال العنصر السياسى عليها ، واقتحامه

( ١ ) لا بد من لفت نظر القارىء الى بحث الدكتور قسطنطين

زريق « نحو ثقافة عربية افضل » في العدد الرابع من « الآداب » الصادر بتاريخ نيسان ( أبريل ) ١٩٥٤ ، موروا بالاستفتاء الذي أجرته « الآداب » حول هذا الموضوع ، حتى مقالات الاستاذ محيى الدين اسماعيل الاخيرة .

على يد الغربيين العنصريين ، حرهما ، لانها حين طرحت بوصفها « قضية » ، راح المفكرون يواجهون الجاناب الثقافي من حياة الامم ، بروح النقد المتميز ، والمتحامل أحيانا في مواقف العداء المكشوف ، أو ظروف الحرب . وكان جديرا بها ، أن تواجه بروح البحث الهادىء المتزن ، بعيدا عن الاشخاص والعصبيات والاحكام والمعايير الخاصة ، وبمناىء عن المدارس والمذاهب الفلسفية المتشعبة ، حتى اذا بانَت الوقائع الثابتة ، وظهرت الحقائق بموضوعيتها الناصعة ، ولم يبق للذواق والامزجة والنزعات الفردية ، حيلة في نفي هذه الحقائق ، ولا سبيل الى انكار تلك الوقائع ، أتيج لذوي الرأي ، وحتى لاهل « الحل والربط » أن يحكموا ، وأن يفيدوا من الملاحظات والآراء والابحاث والدراسات المطروحة ، ما يصح اعتماده في العمل والتطبيق ، لا سيما ان معظم الدول العربية ، ان لم يكن جميعها ، تشتمل في تنظيماتها الادارية على « وزارات » للثقافة .

**اما وقد طرحت قضية الثقافة المعاصرة ، على هذا النحو ، أي بروح نقدي محض - قد يكون متحيزا أو غير متحيز - ، وراح يدلي فيها كل ذي ذوق أو ذي مزاج بدلوه ، من غير التفات الى الجوانب الواقعية ، ولا الى الجوانب العملية المثمرة ، فذلك ما جعلها أشبه شيء بدموى أحييت الى محكمة غير مختصة ، وجعل الناظرين فيها يقفون موقفا هو الترحج والبلبل ، لانهم لا يعرفون ما اذا كانت من اختصاصهم أم هي خارجة عنه ، أم انها بين بين !**

والواقع هو ان كل موضوع يتناوله الناس ، عامة الناس ، بروح النقد ، يتحول لمجرد تناوله بهذه الروح ، الى قضية شبه شخصية ، ان لم تكن شخصية برمتها ، ويجد بها كل فرد ، حينذاك ، ان له « مشاركة » واحدة فيها على الاقل ، أو أكثر من مشاركة ، سواء دخلت دائرة اهتمامه ، أو خرجت عنها ، أو أقحمت عليها اقحاما ، نتيجة هذا الجو الخرافي الذي يقحم كل الناس في كل موضوع !

والثقافة كبحت لا كموضوع نقد ، من أعسر الابحاث الفكرية ، وأشدّها تعقدا ، وأكثرها شمولا وتشعبا ، فلا يستقيم لاي امرىء أن يتناوله من زاوية اختصاصه ، وحدها ، وانما يجب أن يكون عالما بالتاريخ في أول درجة ، وتاريخ العلم والفكر على الاخص ، وله من بعد مشاركات في اللغة ، والادب ، والتشريع ، والسياسة ، وكلما زادت هذه المشاركات ، وعمقت واتسعت ، كان حريا به أن يخلص الى نتائج موضوعية ، مثمرة ، ومجدية .

ولا بد ، في جميع الحالات ، من تحديد « الموضوع الثقافي » عند الحديث عن الثقافة ، ثم لا بد من تركيز الدلالات والمفاهيم ، وايضاح الفروق بين معاني الكلمات ، حتى يصبح الخوض في مشكلات الثقافة - وما أكثرها ! - بله وضع الحلول لها ، شبيها بمزاولة الابحاث الرياضية

التي لا يستقيم فيها البحث الا استنادا الى تعريفات دقيقة واضحة ، وأعاليم جليسة يستخدمها الذهن كما تستخدم اليد أدوات الفلاحة في الحقل ، والكتابة في المكتب ، والرسم في المحترف ...

ذلك لان الموضوعات الثقافية لا تنحصر في فن ، ولا في علم ، ولا في تقنية ، ولا في فرع من فروع المعرفة والعمل ، كما انها لا تنحصر في التاريخ بعصر ، ولا في الجغرافية ببلد ، ولا في الدين بطقس أو عقيدة ، ولا في الفلسفة بمدرسة أو اتجاه . واذا لم يحدد الباحث موضوعه ، وكان همه منصرفا الى النقد ، وتناول الثقافة باعتبارها « مقولة » - كما كان شأن بعضهم على صفحات « الآداب » - اضطر مفكر كالاستاذ مجاهد عبد المنعم مجاهد ، الى وصف المقال الذي يتناولها هكذا ، ان « ما فيه لا يعدو سوى مراهقة فكرية وصيبانية » . والاستاذ مجاهد كان « مضطرا » الى هذا الوصف اضطرارا لا معدى له عن تليته !

وهكذا ، يمكن القضاء على تلك النزعة الخرافية الغربية في تناول الموضوعات الثقافية ، أي بالبحث ، والتحصيص ، والروح الرياضسي ، والنأي عن العاطفة والغرض ، وتجنب الانزلاق في مساوىء النقد ، والتشبث بفضائله .

### • خرافات عربية حديثة •

الخرافة ، في جوهرها ، نتاج انهزامية العقل الانساني حيال الظواهر التي لا يجد لها تفسيرا ، فيطمئن اليها ، أي الى الخرافة ، لانها تلبى نزعته الى الكسل ، الى الراحة . والخرافيون في الحقيقة ، هم الانهزاميون الذين يرتاحون الى ما يرضي أهواءهم ، ويستجيب لرغباتهم ، ويتيح لهم ما يشتهون من أقرب السبل ، بينما الروح العلمي جهاد ، والنقدي قلق .

وكان أن سرت بعض النزعات الخرافية الحديثة من أوروبا وأميركا ، الى أقطار آسيا وأفريقيا ، كاليمن بالدعاية ، والاعتقاد بأفضلية عرق على عرق ، والالتكاء على « نظريات » يشيع انها علمية ، والميل الى قاعدة « فرق تسد » في تركيز الفكر السياسي ، وتغليب الآراء الصادرة عن الاجانب على الحقائق الموضوعية .

واذا كان مصدر الايمان بهذه الخرافات يختلف بين الاوروبيين والاميركيين من جهة ، والآسيويين والافريقيين من جهة أخرى ، بمعنى ان الاغراض السياسية هناك ، وأحداث التاريخ الاستعماري ، تكمن وراء الفكر الغربي الخرافي ، والروح الانهزامية والانتكالية هنا ، هي التي تكمن وراء الخرافات العربية الحديثة ، فان اختلاف المصدر في الظاهر ، لا يفيد أبدا ان جوهر الخرافية الحديثة ، متعدد .

ان انخدال الاستعماري أمام شهواته ، وانصياعه لرغباته في التحكم واستعباد الآخرين وهدر حقوقهم

وحرياتهم ، وكل ما يجز وراءه هذا الانصياع وذلك الانخزال من أفكار ، ومبادئ ، ونظريات ، وعقائد يحسبها علمية ، لا تختلف أبدا في شيء عن انهزامية الانهزامي من العرب ، والشرقيين عامة ، إذ تزين له - أي انهزاميته - أن ما يقوله أعداؤه هو الصواب ، ويحملة أخلاذه السليحة الراححة على تقبل كل ما يهمس في أذنيه ، أو يطالعه في الصحف المفرضة والمعادية له ، ويرفض عن كسل ، نقد ما ينهى إليه من آراء وأفكار .

إذا قرأ سلامة موسى مثلا - وهو مثال الخرافية العربية الحديثة - في بعض الكتب الأوروبية أن العرب أبعد الناس عن التفكير في المستقبل ، نسي كل ما جاءت به النصرانية عن ملكوت السموات ، وغفل عن كل ما نادى به الإسلام من دعوات لاتقاء سوء المصير ، وما حث عليه من عمل بحيث يتصور كل انسان انه يعيش أبدا . . . ثم أغفل كل ما شاع وذاع في فضاء الفكر العربي من أخبار الكهان والحكماء والالمعيين الذين عرفوا أنهم ذوو « الإصابة بالظن » .

وإذا أطلع فلان على الافكار الشائعة عن العرب في ألمانيا ، في انكلترا ، في أميركا ، تضاءلت ثقته بنفسه ، ووطنه ، وشعبه ، وتاريخه ، ولقته ، حتى اليأس ، بل حتى النقمة على نفسه ووطنه ، ولا يخطر في باله أن هذه الافكار والآراء التي تلقى ، إنما يلقيها أناس لهم مصالحهم ، وأغراضهم ، وعقليتهم الخاصة ، وأن ما يقولونه يحتاج ، على الأقل ، إلى بحث وتمحيص ، فلا يجوز التسليم بصحته بمجرد أنهم قالوه !

وإذا سمع فلان على لسان أوروبي أن « آسيا أنثى ،

وأوروبا ذكر ، ولا غنى عن هذين لايلاذ عالم جديد » ، خالجه الحسرة ، وشعر بالمرارة لأن بلاده تقع في قارة « توصم » بأنها أنثى ! فيا لهذا وذلك من خرافيين ، يعيشان بعقلية خرافية ! وما لهما يقينان عن « جنس » أفريقيا ، بين أوروبا وآسيا !

### ظواهر أمل ، هو الحقيقة نفسها .

ولكن ما من خرافة عاشت ، وخلدت مع الحياة . الخرافات كلها سحقت وماتت في اللحظة التي سلط عليها الفكر الانساني - لا الحيواني - أنواره . والذين حولوا العلم نفسه إلى خرافة ، أو تعلقوا عليه سببا إلى الدعاية ، أو تقنعوا به لتحقيق أغراض يشجبها كعلم ، سحقتهم خرافيتهم ، وانقلبت عليهم دعاياتهم ، وهوت عروشهم يوم هوت أقنعتهم ، وأمساوا عبرة لمن يعتبر !

ها أن الروح العلمي الاصيل الذي نشأ في ديار آسيا ، وحضنته أفريقيا ، وتنامى في أوروبا ، أخذ يطل من جديد ، أخذ « يشرق » في هذا الشرق ، والنقد الصحيح البناء يواكب ذلك الروح ، وينشر حزمة أضراره في دروب الحفاة والعراة والجائعين ، ويفل جيش الخرافات الحديثة الذي أشاع البلاء والفساد في قارات العالم الخمس .

والامل كله معقود على الحقيقة . والحقيقة لا بد أن تظهر . . . رغم أنف المكابرين ، والانهزاميين ، والخرافيين .

عبد اللطيف شراره

## الوجه الآخر لأميركا... الفقر في الولايات المتحدة

بقلم ميكايل هارنفتون

ليس « الوجه الآخر لأميركا » رحلة عاطفية يقوم بها في احياء « ولغير ستيت » كاتب اميركي غاضب امام الخمسين مليوناً من الفقراء المنسيين المنبوذين . بل أن « ميكايل هارنفتون » يعلن غضبه وثورته بصفته عالماً اجتماعياً واقتصادياً . أن الفقر في الولايات المتحدة كتلة ، دولة ضمن الدولة ، نظام خلقه نظام . وليس فيه ما يشبه البؤس الاسيوي الذي يعتبر القضاء عليه هدفا قومياً لانه نصيب الاكثرية . ولكن هل يستطيع الاميركيون الذين ينعم ثلاثة ارباعهم بأعلى مستوى للحياة في العالم أن يتحملوا وقتاً طويلاً مشهد هذا الفقر الذي لا مثيل له ، وهؤلاء الفقراء ( الخمسين مليوناً ) الذين لم يعرف التاريخ أعجب منهم ؟

والمؤلف بيرهن ، كما يقول كاتب المقدمة كلود روا ، أن كون الانسان فقيراً لا يعني انه يملك مالا أقل من غيره ، بل أن القلة لديه في كل شيء ، في الذكاء ، في الصحة المعنوية والبدنية ، في الروح الاجتماعية . « أن الفقر لا يعني أن الانسان يملك أقل ، بل يعني أيضاً انه يعيش أقل ! » .

يصدر في الشهر القادم